طوفان السمع والطاعة

رواية قصيرة

أحمد الخالد

ليس إهداء

إلى مختار ... الذي أرويته الجمال فلما اشتد القبح عليه .... شوهني .

وليس إهداء

إلى سلوى التي أرواها مختار القبح فلما اشتد الجمال عليها .. شوهتني .

وليس أيضا إهداء

إلينا - نحن - ثلاثي أضلاع المثلث الأبدي المذموم ..... البقاء لله دوما .

أحمد الخالد

(١)

ســيــرة الظـمـأ

أ – نهر الظمأ لا ينضب

" .... ألا من مطفئ لهذا اللهيب الذي
عليه أصحو وعليه أنام وبه أمر طيلة
النهار على حجرات القصر ملتاثة ؟
ألا من مطفئ لهذا الظمأ ؟! "

عطش يخنقني .. يلف جسدي ، تتفتح به كل خلاياي ، ازداد به نعومة وجنونا ؛ يوقظني من نومي كأني أغب من نهر لا نهاية له ؛ يفيض بسائل أحمر لزج ساخن ، أظل أنهل منه النهلة تلو النهلة تلو النهلة حتى أنز به ، ولا أرتوي فيلف جسدي بلونه القاني ويتجمد فوقي ثقيلا ثقل القصر كله ؛ فيفيض النهر ، يفور ، يغلي فأنهل وأنهل وأنهل فأصحو من نومي جسدا أبيض بضا - مازلت – سخونة تغلي في صدري والعطش يصير تنينا يتابعني ؛ أراه يبتلع وصيفاتي وهن يضحكن ملبيات

- السمع والطاعة مولاتي .

فيزداد اختناقي وهذا الحيوان الجاثم في صدري يلف فيه ويدور هائجا ، مائجا ، راكعا ، ساجدا واقفا ، لاهثا ؛ فأصحو صارخة مكتوية لا أجد إلا

- السمع والطاعة مولاتي .

تلك الوصيفات الساذجات اللاتي يغمزن قائلات :

- إنه العطش للرجل يا مولاتي .
- أية بلاهة تلك ؛ وهل أعطش بما لا أعرف ؟!

(ب)

الأميـرة تغرق في بحـر الأسئـلـة

"أو لابد من وجود تلك الكائنات التي تشبه
أبي تلك التي تجزم وصيفاتي بأن هناك جيشا

منهم يجهزه أبي ليملآ به قصر العذارى ؟؟!"

تململت الأميرة فوق حمالتها الحريرية زافرة بضيق :

- **لابد وأن أبي هذا يكرهني ، وإلا فلماذا يملآ علي هذا القصر بتلك الكائنات التي تشبهني وتسمى عذارى ؟**
ولماذا يصر كل يوم على بعث رسله للاطمئنان على عطشي ولا يكلف نفسه عناء رفعه عني ؟ .... أليس هو الملك الذي لا راد لكلمته ؟!
نعم هو يكرهني . فهل كل البنات لا يرين آبائهن مثلي ولا يكدن يتعرفن على ملامحهم ؟
خمس دقائق كل بضعة أشهر لا تكفي إلا ليلقون عليهن بأوامرهم ويصدرون عليهم أحكامهم التي لا راد لها !
هل كل البنات مثلي يأمر آبائهن بقتل أمهاتهن بعد الولادة ؛ وتربيهن الوصيفات للملكة الأم المقتولة ؟! وما أن يبلغن المحيض ويأتيهن وجع العطش فتختفي وصيفات الملكة الأم فتسر إليهن الوصيفات الجديدات بأن القديمات قد قتلن لأنهن قد أدين ما عليهن للأميرة الصغيرة ؟
هل يمتلئ العالم بالأميرات الصغيرات والوصيفات اللاتي يملأن عليهن حجرات قصورهن مختومات الصدور بخاتم العطش ؟!
أو كل هذا العذاب لأجل أن يختارني كائن مثل أبي ؛ لا أعرف ماذا يفعل بي ليطفئ هذا الظمأ – كما تقول وصيفاتي البلهاوات – فألد له مثل أمي ثم يأمر بقتلي مثلها وتدور طفلتي مثل تلك الدورة ؟!

تململت الأميرة وتعالت صيحة الظمأ فيها ....

- ما بال هذا القاتل المحترف الذي يدب على أياديه وأرجله المتعددة ؛ يحاول الخروج بروحي من جسدي ، كأنه قنفذ يتخفى خلف خطواتي واهتزازات سريري ؟!
وما لهذه الوصيفات لا يجبن عن أسئلتي التي أطرحها إلا لماما وبوجل .

يقلن :

- إن لهن آباء يسمون رجال ؛ لا يشبهون أبي ، وأن لهن أمهات ولدتهن ولم يقتلن ، وأنهن لسن بأميرات مثلي ، وأن لهن إخوة وأخوات بنات ونسوة ، وأن هناك رجال يخطبونهن وكدن أن تتزوجن سرا كما تفعل الباقيات - منذ أن حرم الملك الزواج - لولا أن يد العسكر التي تجس موضع الجميلات في كل مدائن المملكة اللاتي يبلغن المحيض التي ما تركت منهن واحدة .
نمر عبر حجرات سفلية في القصر نتعلم فيها ضبط اللسان في الحديث عن الرجال ، وطرق التسرية عن الأميرة - مولاتنا - وفنون الرقص والمغاني .
لم ندخل على مولانا الملك المعظم كجاريات ينعم بنا الواحدة بعد الأخرى كما توهمنا مع المتوهمين من قبل ، بل أخبرنا بأنه قد ختم علينا بخاتم العذرية وصيفات للأميرة العذراء ؛ في انتظار اليوم المشهود !
لكن النهر في الخارج قد نضب - مولاتي - فما عادت النساء في طول البلاد وعرضها تلد ، منذ أن حرم مولانا المعظم الزواج بعد ولادتك – مولاتي – بعشرة أيام ، منذ ذلك الحين والزواج يتم سرا في المملكة ؛ لكن لا تجرؤ واحدة على الحمل ، تعلم الشعب بأكمله – مولاتي – فنون الإجهاض فالويل كل الويل لمن تضبط حاملا :
تفصد يا مولاتي وتعلق أجزائها قطعة قطعة أمام أعين أهلها وسط جمع من أهل مدينتها ويقذف بها لسباع ضارية وأفاع جائعة ....
وعلى طول البلاد وعرضها في كل المدائن ضربت الأسوار لئلا يحاول أيا من أفراد الشعب الهرب في انتظار الحدث العظيم ....

- أي حدث عظيم هذا ؟!
- ألا تعرفه مولاتي ؟!

لابد أنه اليوم الذي يختار فيه مولانا المعظم زوجا للأميرة ؛ ليكون قائدا للجيش وشريكا للملك الأب في كرسي المملكة ، يوم يخص لكل فرد من أفراد جيشه وصيفة منا ، أليس كذلك مولاتي ؟

- لكني أسأله ولا يجيب .

يقتلني العطش في تلك اللحظات التي معي كل بضعة أشهر لأن أشرب ذلك السائل الأحمر القاني الذي أكاد أراه يتدفق من جسده أمام عيني ؛ فأستمسك كما عودت نفسي لعله يجيب عن أسئلتي :

- لماذا قتلت أمي ؟؟ ... فيصمت
- هل قتلت أمي حقا ؟ .... يصمت
- هل قتلت مربياتي ؟ لماذا قتلتهن ؟ .... يصمت
- ما بال هذا العطش الذي يحرقني فأكاد أجن ؟ .... يصمت
- متى سأخرج من سجن العذارى هذا ؟
- .... متى لبيت طلب زواجك ممن أختاره لك ...
- ثم ألد له كما فعلت أمي لك ؛ ليقتلني كما فعلت أنت ؟!

فلا يجيب .

- لن ألبي لك طلبك .

ويخرج .

أعلم أن هناك أمرا وحكما جديدا سيصدر ؛ يزيد من خناقي ، سيسحب مني مفتاحا من مفاتيح المتع في القصر ، وسينزع عني ساعة من ساعات الاستيقاظ التي ينزعها كل مرة حتى بات القصر لا يضاء إلا وقت النهار ، لنظل في متاهة الليل تائهات نائمات قلقات في انتظار انبلاج الفجر ، محرومات من الشرفات والمشربيات المطلة على الحديقة التي بتنا لا نذكر لها معالم .

متى يطفأ ذلك العطش الذي يشتعل في صدري ؟ كم أكرهك يا مولانا المعظم أنت ! كم أمقت وجهك القبيح ولحيتك المديدة ، وتاج سلطانك هذا ، كم انتظر تلك اللحظة التي أكاد أراها وأنا أتفلت منك ومن سجنك اللعين الناطق – كما تقول وصيفاتي البلهاوات تلك – بآي الجمال كما مفاتن حسنك مولاتي ! أي جمال في سجن أيتها البلهاوات ؟! وأي مفاتن جسد لا تأتي عليه لحظة يشعر فيها براحة الارتواء ..ولو لحظة واحدة ؟!

(جـ)

سيــرة الجســد

" أي جمال تراه فيكما هؤلاء الوصيفات ؟ "

تثنت الأميرة وتمددت ، وألقت بظلال جسدها فوق دائرة الضوء الساقطة من السقف المعلق للمخدع ، وتقلبت فاهتزت حمالتها الحريرية النائمة فوقها تحت الشرفة وانتفضت فصارت كأرجوحة تميد تحت جسدها فتقارب الأرض ترفعها شداداتها المطاطية إلى أعلى فيهتز نـهداها ، يترجرجان ، ينتفضان فتتابعهما بعينيها كما اعتادت ... تسكن حتى يسكنا ، فيعاودها الظمأ وتتأجج ناره فيهما ....

- أي جني يسكنكما ؟! وأي جمال تراه فيكما هؤلاء البلهاوات ؟!
هل هذا الجسد جميل حقا ؟!
لقد حفظت ثناياه وانحناءته ، عددتها وأخطأت العد ؛ خيل لي أني أخطأت ، أكدت لنفسي أني أخطأت لأعاود عدها وأعيد مع العد معاودة ملامسة كل جزء فيه ومعاودة اختبار نعومة الدمقس والحرير عليه ؛ وتأكدت مرات ومرات من خلوهما من النعومة من رقة نعومته ، خيل لي أنني أكون أقل ظمأ حين تلامس أناملي أجزاء جسدي ، فأعاود وأظمأ ؛ وأعاود وأظمأ ....وأعاود فأسأم ، فأتمرغ ، فأسأم ...... وأتمرغ وأسأم ؛ أكاد أشعر بجسدي ينفجر ! أي جمال في جسد ينفجر من الظمأ أنت أيتها البلهاوات ؟
أي جمال في أجسادكن ؟ بأي المقاييس تم اختياركن لتكن جميلات قصر العذارى ؟

- سيدتي الشيء بمثيله يعرف !
ما أنتن إلا عرائس كقطع الزينة ، يتزين بها القصر لتدخل على نفسي التعيسة بعض الراحة .... الراحة ؟ أي راحة والظمأ يفتك بي ؟!
- أنتن أيتها الوصيفات .... تعالي إلي ..... كيف تسمحن لأنفسكن بتركي كل هذا الوقت بمفردي ..... وأنت يا كبيرة الوصيفات أنت ....

- السمع والطاعة مولاتي
- مري بحبسك في حجرة التمثال الرجل وحيدة طوال الليل لئلا تجرئي على تركي هكذا مرة أخرى ....
- السمع والطاعة مولاتي ، لكن مولاتي أمرت بتركها منفردة هذا النهار .
- نفذي ما أمرتك به أيتها البلهاء
- السمع والطاعة مولاتي
- إياك ولمس التمثال
- السمع والطاعة مولاتي
- تريدين الانفراد بتمثال الرجل عارية ؛ فترجعي نشوى ، سكرى كعادتك ؛ ارجعي عما أمرتك به ، ومري بتهشيم ذلك التمثال .
- السمع والطاعة مولاتي
- ادخلي حجرة الأفاعي التماثيل حتى أطلبك .
- السمع والطاعة مولاتي
- السمع والطاعة مولاتي ..... السمع والطاعة مولاتي ... ليس لكن إلاها هذه الكلمات البلهاء .... اخرجن من أمامي الآن وإلا أحرقتكن جميعا .

(د)

الغـامـزات سـرا

انسحبت الوصيفات محاذرات، غامزات ، ضاحكات سرا دون أن تجرؤ إحداهن أن تنبس ببنت شفة إلى أن اقترين من مفترق طرقهن لتدخل كل منهن حجرتها ؛ ففكت إحداهن لسانها من معتقله وهمست همسا خفيضا؛ فما كادت أن تسمعها إلا أقرب القريبات منها :

- أعذرن مولاتي أيتها الوصيفات ، فها هي تخرج من دورتها المائة والعشرين وما من رجل ! حتى أنها تحرم على نفسها متعة الاستحمام في مسبح تمثال الرجل العاري ، وها هي تصدر أمرها الألف بتهشيم التمثال ؛ آه لو سمعت الوصيفة التي نحتت التمثال !
- تعرف الوصيفة أن الأمر لن ينفذ ، ولو نفذ لعكفت على الصخر والأزميل ولقضت ثلاثة أشهر أخرى تنحت تمثالا جديدا ، لكنا سننتظر محترقات حتى تنتهي ! زفرت وصيفة :
- وماذا ستفعل التماثيل ؟
- ما تفعله في كل منا حين تدخل للاستحمام في الحجرة !
- لقد مللت النظر للتمثال !
- غمزت الوصيفة غمزة لأقرب جاراتها وتلون صوتها :
- لعل عزيزتنا تكتفي بالنظر للتمثال !
- إن كنت قد مللت يا أختاه فتطوعي بدورك لي في طابور الاستحمام في مسبحه !
- دعكن من هذا الآن وانظرن كبيرة الوصيفات ها هي ستقضي ليلة جديدة في حجرة الأفاعي وحيدة ، لتعود فتقضي يومين أو ثلاثة أيام مرعوبة صامتة !
- إن هي إلا تماثيل !!
- تمثال الرجل العاري التي تتخطفن أدوار الاستحمام عليه ما هو إلا تمثال أيضا فلماذا تتعاركن على الدخول إليه ؟!
- سيأتي يوم وتدخلين الحجرة ، وستعرفين معنى أن تنامي في سرير من الخيش والقار بين أنياب أفعى ولو كانت تمثال ... كبيرة الوصيفات شجاعة إذ لا تقضي سوى يومين أو ثلاثة صامتة مرعوبة ، أما أنت فسوف تموتين بين أنياب الأفعى إن أمرت بالدخول ....

(هـ)

تجـرأت الوصـيـفـة .... فانـفـجـرت الأمـيـرة

" صرخة أفزعت الليل الحالك الذي يقضيه
القصر كآخر عقوبة من الملك بعد رفض
الأميرة الزواج "

صرخة أشعلت جدران أروقة القصر النائم بالرهبة ؛ وضربت السكون الجاثم فوق القصر في مقتل ، هزت عليه الجدران فاستسلم لسيقان الوصيفات وأجسادهن تتخبط في الظلام ؛ فتتوالد الصرخات أقل حدة .

حددت الآذان المرعوبة جهة الصرخة ؛ كانت آتية عبر ممرات القصر المؤدية إلى حجرة الأفاعي ، تداخلت الأصوات والأجساد متجهة صوب الحجرة ......

.... كانت الأميرة قد هدها تعب الهدهدة ، لما أخذت تبكي وسط وصيفاتها المقربات بعد خروج كبرى الوصيفات وعودتهن لتحاول كل منهن التسرية عنها كالعادة وقد باءت محاولتهن جميعا بالفشل إذ لم تنم عن الأميرة تنفسات هدوئها كما اعتدن ، فاحترن في أمرها هذه المرة خاصة وأنها الليل كان قد اقترب ، فاستأذنت إحداهن الأميرة أن تصرف الباقيات لأمر هام ، فلما انصرفن استأذنتها أن تعطيها الأمان ؛ فأمنتها ، فكت عنها أزرار ردائها الوردي الحريري وخلعت عنها ملابسها قطعة قطعة ثم فكت عن الأميرة ضفائر ردائها الوردي وتقدمت مرتعشة الأنامل من نهد الأميرة فندت عنها آهة احمرت لها وجنتيها لما لامست أناملها نهد الأميرة :

- ما كل هذه الطراوة يا مولاتي ! ما كل هذا الجمال في التكوين والنعومة مولاتي ! إن عيني ما رأت – وما لها أن ترى ، حاشاي ؛ وما لامست أناملي ، هذه الأنامل الخشنة ، حاشاها أن تلمس أرق وأجمل وأنعم من نهدي مولاتي .... هل تسمحين لي سيدتي أن أسجد شكرا لأنني قد لامست بأناملي الفانية هذه نهدي ربة الجمال الخالد " سندس بان " .....!

وخرت الوصيفة ساجدة واعتدلت :

- هل تسمح لي مولاتي بتقبيلهما .... أرجوها ألا تسمح .... حاشا شفتاي الفانيتان أن تلامسهما .... إني لأحترق شوقا لتقبيلهما مولاتي !
هل تستلقي مولاتي على ظهرها ؟!

ففعلت الأميرة مندهشة ... وراحت يد الوصيفة وشفتيها تتعبدان في وجل ورجفة فوق نهدي الأميرة دون أن تجرؤ على ملامستهما ، تقتربان رويدا رويدا يمران كوميض خافت كلمسة حرير كنسمة خفيفة حتى اعتادا على الملامسة فسكن الأميرة خدر غريب عليها حتى أنها بدأت تشعر بأنها بدأت تتغلب على لهيب الظمأ فهدأت حدته ....

رويدا رويدا تخلت أنامل الوصيفة وشفتيها عن هيبة الساجد المتعبد ، فلم تمتلك نفسها وهي تشعر بنهم الجائع في التهام طيب الطعام ، حتى ازدادت أناملها الدربة نعومة ورقة وثقة شيئا فشيئا ، فتآكلت شفتاها رغبة فوق نهدي الأميرة التي استرخى جسدها تماما فضغطت يد الوصيفة تريد المزيد ...

ظلت الأميرة مسترخية تماما تشعر بخدر غريب في جسدها وانتفاضات جديدة عليها كأنها ماء باردا يطفئ ظمأها رويدا رويدا كلما زادت الوصيفة من حركات يدها الدربة في جسد الأميرة كلما زادت انتفاضاتها كلما رغبت في ضغط أكثر فأكثر ، لم تستطع يد الوصيفة رهبة أن تمتد لكامل خارطة جسد الأميرة كما تعودت مع زميلاتها حتى همدت رغبة الأميرة في الزيادة وغلبها النوم .

انسحبت الوصيفة ملتقطة ملابسها وهي تتآكل رغبة في الاستمرار وخرجت متسحبة داخلة في أول حجرة قابلتها تغلبها الرغبة في الارتواء عن التصريح بانتصار رغبتها في دخول الأميرة في ألعابهم الليلية ....

.... استيقظت الأميرة اثر الصرخة مندهشة من الخدر الذي مازال في جسدها ، تحاول أن تتذكر الحلم اللذيذ التي كانت تدور في أرجائه ، فتذكرت يد الوصيفة فشعرت وكأن يدها لا تزال فوق نهديها .... لم تمهلها الصرخة الثانية والضجة بالخارج التلذذ أكثر بالتذكر فرمت على كتفيها رداءها الوردي وخرجت .... كانت الضجة تعج في الظلام مازالت ، فأمرت بكسر حجب الظلام وإشعال السرج والشمعدانات ... ارتعدت الخادمات ورحن يتخبطن ويتصببن عرقا وأياديهن تنتفض مترددات ، انصعن للأمر في النهاية وأشعلن السرج ، والشمعدانات لكنهن انتفضن ملسوعات ما أن انتشر الضوء وصوبن أنظارهن مع الوصيفات صوب الجسد المتلألئ تحت الرداء الحريري مفكوك الضفائر الخاطف من ضوء الشموع تلألئه ناسيات أمر الصارخة مشدوهات لهذا الجسد الأمر بكل أنواع الالتهام عبادة

وفجورا... لكن الصرخة الثالثة أخرجت الأميرة من الدهشة التي راقبتها في عيونهن فشددت من ضفائر ردائها وهي تكاد تتفصد عرقا واتجهت صوب حجرة الأفاعي ، سرن خلفها وأياديهن تتآكل للمس جزء من هذا الجسد ، أو السجود بين يديها ... أمرت الأميرة بفتح باب الحجرة لكبيرة الوصيفات فوجدنها مغشيا عليها متشبثة بالباب فحملنها وخرجن إلى أقرب حجرة منهن وحاولن إفاقتها بصب الماء وتمرير فوهات قوارير الروائح أمام أنفها وبعد طول محاولة أفاقت الوصيفة وأجهشت بالبكاء وهي تنظر في عين الأميرة ، تخبئ وجهها بكفيها وتعاود البكاء ، فصرفت الوصيفات الواقفات الخادمات ، وأخلين الحجرة للأميرة إلا من ثلاث وصيفات جلسن يهدأن من روع كبيرتهن حتى توقفت عن البكاء والأميرة حائرة مندهشة مازالت تنتظر :

- ماذا هنالك ؟ ما بك ؟
- أفعى !
- أفعى في حجرة الأفاعي ؟ وما في هذا ؟
- بل حنش ... لا ليس بحنش ؛ إنه آدمي ، لا ... بل رأس آدمي صغير لجسد أفعى صغيرة مغطى بوبر أبل أحمر وله أقدام أربع صغيرة مغطاة بشعر ماعز ... حي يسعى بالحجرة ... هناك ... إن منظره قبيح قبيح ... قبيح ... إنه ... إنه القبح ... هو القبح ذاته يا مولاتي ... القبح وقد نبتت له أربعة أقدام !
- هو خوفك وقد صار كابوسا ليس إلا !
- لا يا مولاتي لا .
- مرن الخادمات بتفتيش الحجرة .
- ليس بحلم ، ليس كابوسا يا مولاتي ، إن أسوأ الكوابيس لا يمكن أن ترسم منظره .... لقد كنت مستيقظة حقا ، مستيقظة تماما وشعرت بأنفاس حية بجواري فسكنت حركتي رعبا ، ووقفت أنفاسي هلعا ؛ حتى كدت أن أختنق ... كان النفس فحيحا ... فلم أملك أن أتماسك عن إشعال فتيل السراج الموجود بالحجرة – فلتغفر لي مولاتي – فلمحت عينين تبرقان في الظلام ، ورأيت أنفاسا تتقد نارا لمحت على إثرها باقي جسده ... صرخت ؛ فنفخ في السراج نفخة واحدة أطاحت به في الجدار فتات ، ولم أشعر بأنفاسه بعدها مرة أخرى فجننت صامتة أنتظر، وأفتش جسدي مرعوبة ؛ حتى لم أعد أحتمل المزيد فصرخت فبرق برقة واحدة واختفى ؛ ليس بكابوس يا مولاتي – أعزك الله –
- هو خوفك ممزوجا بخيالاتك ليس إلا !
- بل ما رأيته حقيقة يا مولاتي

عندئذ أدركت كبيرة الوصيفات أنها مستلقية على ظهرها في حضرة الأميرة فانتفضت كمن لدغها لادغ وأجهشت بالبكاء :

- **عذرا مولاتي !**
- **لا عليك ، استلقي ثانية ؛ وأنتن أيتها الوصيفات خففنا عنها ملابسها ودلكنها بالطيب حتى تفيق ،**

استلقت كبيرة الوصيفات على استحياء وعاودت البكاء ، وحين فرغت الوصيفات من نزع ملابسها عنها ؛ أفغرت الأميرة فاها دهشة وإكبارا حين أبصرت جمال جسد كبيرة وصيفاتها ، وروعة تكوينه ، ونعومته الجلية فغابت في تأمل تفاصيله حتى أيقظتها رجفة عائدة إلى حواسها الأخرى بكلمات بدت بعيدة جدا تؤكد بها الوصيفات :

- **لا شيء بالحجرة مولاتي ليس إلاه السراج مفتتا مسحوقا !**

أمرت الأميرة بشيء من الارتباك بتهشيم تماثيل الأفاعي والتخلص مما في الحجرة في الحال وبقاء الوصيفات الثلاث مع كبيرتهن حتى تهدأ مع إبقاء إضاءة القصر طوال الليل ؛ حاولت الوصيفات إثناء الأميرة عن إضاءة القصر خشية غضب الملك ، لكنها أصرت وصرفتهن تفكر في أمر كبيرة وصيفاتها :

- **أطاح خوفها بيدها فارتطمت بالسراج ، ليس إلا !**

قالت الأميرة لنفسها وجسد كبيرة الوصيفات يتسلل رويدا رويدا إلى خيالها يملكه مستمتعة بقضاء ليلة في ضوء الشمعدان تتأمل الجسد الماثل أمامها يتلألأ مع ألوان قوس قزح الساقطة عليها من سقف الغرفة الزجاجي المعلق بتداخلاته الملونة الرائعة مع ضوء الشموع ، تصطاد دوائر الضوء الملونة الساقطة على جسد كبيرة وصيفاتها الذي لم يفارق خيالها ؛ ترعبها كلمات الوصيفة :

- **إنه ... إنه القبح ... هو القبح ذاته يا مولاتي ... القبح وقد نبتت له أربعة أقدام !**

فتهملها متلذذة بتخيل جسدها تلهو به في ظلال الألوان في لعبة جديدة عليها مستمتعة بالضوء بعد شهور الظلام الفائتة ، همت أن تخلع عنها ردائها الوردي الشفاف لكنها تراجعت وارتمت تتمرغ كعادتها في الظلال الملونة فوق السرير سعيدة بإضافة جسد الوصيفة للعبتها القديمة ، هبت عليها نسائم نعومته فعاودها ألم الظمأ وشهقته الممزوجة باللهفة والسام معا ؛ فهمت أن تنادي الوصيفات لحظة أن انتفض السرير من تحتها مصحوبا بسلسلة من الأنات آتية من تحته فسكنت متجمدة حتى

هدأ الانتفاض فتلفتت حولها بحذر يغلبه الخوف متصببة ؛ فلم تجد شيئا إلا الظلال مازالت تتراقص مع ارتعاش فتال الشموع ، دون جسد كبيرة الوصيفات هذه المرة .

... كادت أن تنادي الوصيفات لحظة تركها للسرير لكن انتفاضه وسماعها للأنات مرة أخرى شل حركتها وأغلق فمها لما حاولت الصراخ فعجزت لفرط دهشتها ورعبها إذ أبصرت أمامها فجأة :

رأس آدمي صغير لجسد أفعى صغيرة مغطى بوبر أبل أحمر وله أقدام أربع صغيرة مغطاة بشعر ماعز يثبت عينين من جمر في عين الأميرة ؛ وجهه الصغير يعتصره الألم ، يقطر دمعا أو عرقا غزيرا ، يصنع بركة صغيرة تلتف حول الجسد الصغير ويتصاعد منها بخارا كبخار الماء الساقط من إبريق ساخن ؛ فينتفض جسده الصغير ويباعد بينه وبين بركة الماء الساخن الملتف حوله متقافزا . تصلب جسد الأميرة وعينها مثبتة في عيني الكائن المنتفض أمامها لا تستطيع الفكاك منهما حتى اشتعلت قدميها احتراقا من لسعة الماء المنهمر من جسده ؛ فانتفضت ساقطة بظهرها على السرير مغشيا عليها .

(و)

إنـه القبـح ... القبـح ذاتــه يـا مــولاتـي

" فاق جمالك كل وصف أيتها الأميرة .

ها قد كبرت ، وفاق جمالك حسن أمك

ربة جمال عصرها "

.... تداخلت مشاعر الأميرة وهي تحاول فتح عينيها ، لا تعرف سر الخدر الساري في جسدها .... تشعر وكأن أنامل الوصيفة مازالت فوق نهديها تداعبهما ... لا ، بل هناك ما هو ألذ من تلك اللحظة ، تشعر به الآن ؛ يد خشنة دربة تتوزع فوق جسدها

كله ، دافئة دفء له سخونة تلسعها وتدغدغ خلاياها .... تراجعت جفونها عن الارتفاع إثر لذتها ، همهمت متأوهة وتقلبت في فراشها وهي تتآكل دغدغة وتشعر بلزوجة تنساب من جسدها دافئة تلسعها ؛ فاستسلمت للخدر حتى خالت أنها تنساب في الفضاء ، تسبح ، تطير ، تحلق بجناحين طريين فتبصر قصورا وحدائق مزدانة تبرق تحت جسدها فتسبح ... تمتد أياد تطاول السحاب تهدهدها وتعابث كل السحب تحتها برياش من حرير ، وكلما حاولت النزول رفعتها لأعلى مرددة :

- **لبيك أميرتي الصغيرة ... لبيك**

فتمطر من جسدها عطورا تساقط فتنبت قصورا وحدائق تفوح بعطر نفاذ مرددة :

- **لبيك أميرتي الصغيرة ... لبيك**

يتخلل بخار العطور مسامها فتنتفض لذة وتضور جوعا للمزيد ، تختلط عليها الصور فتعاود الإحساس بيد الوصيفة خشنة مازالت تجوس كحمامات تائهة بين نهديها فيرقصا طربا على إيقاع الأنامل في مزماريهما الطروب .

- **فاق جمالك كل وصف أيتها الأميرة .... ها قد كبرت وفاق جمالك حسن أمك ربة جمال عصرها .**
- **من أنت ؟**

تمرغت الأميرة وهي تفتح عينيها ، ثم اعتدلت تبحث عن صاحبة الصوت بتكاسل إذ أدركت الآن أنها كانت نائمة ، لمحت بلل البلاطات فاستعادت وعيها ، فارتعبت متداخلة في جسدها ، ضامة ساقيها إلى صدرها ، مشوشة كانت بتذكر الليلة الماضية ، صرخت عندما اكتملت في ذهنها صورة الكائن الذي رأته ليلة أمس وتردد على سمعها صوت كبيرة الوصيفات كالصدى :

- **إنه القبح ذاته يا مولاتي ... القبح وقد نبتت له أربعة أقدام .**

فشهقت صارخة باكية لما رأت جسدها عار تماما رغم أنها لم تخلع عنها ردائها ليلة أمس ...

كان النهار قد دخل إلى المخدع من فتحات السقف المعلق والشمس تتأهب لتهب دوائره تداخلاتها ، وقبل أن تسمع الأميرة خبطات الوصيفات اللاتي تجمعن على صراخها ؛ سمعت صوتا يأمرها من داخل مخدعها :

- اصرفيهن الآن أيتها الأميرة .... ولا تخافي ... هدئي من روعك أميرتي واصرفيهن .
- أين صاحب الصوت ؟؟
- مري وصيفاتك بالابتعاد عن الباب وإغلاق حجراتهن عليهن جيدا فلن أظهر إلا بعد ذلك .
- من أنت ؟
- افعلي ما أمرك به .

ازدادت ضما لجسدها وحاولت جاهدة أن تفتش بعين رعبها عن ردائها فلم تجده ، فازداد رعبها وغطت وجهها بكفيها لكنها إذ شعرت بأن هناك عين غريبة ترقبها أحست بعريها يكويها فما عرفت كيف تستره ، مدت يدها سريعا تسحب ملاءة السرير من تحتها وتتدثر بها غائصة في الصمت حتى ازدادت الدقات على الباب فأفاقت كأنها فوجئت بها وقبل أن تتهيأ لأمر الوصيفات بالدخول جاءها الصوت مرة أخرى بغلظة آمرة :

- افعلي ما آمرتك به ... ادعهن لدخول حجراتهن وإغلاق الأبواب عليهن جيدا .. . نفذي ما آمرك به .
- عدن إلى حجراتكن وأغلقن أبوابكن عليكن جيدا ، والزمن أماكنكن حتى يصدر لكن مني أمرا ...

تردد صوت الوصيفة في أذنها :

- إنه القبح .... القبح ذاته يا مولاتي .... القبح وقد نبتت له أربعة أقدام .

فازدادت رجفتها تحت ملاءة السرير وعاودها لهيب الظمأ يتفجر داخلها تاركا لبراكينه العنان ، أنهار العرق تفيض من جسدها الملتف المحموم ،ورأسها المنكفئ على ركبتيها المضمومتين إلى صدرها تحرسهما يداها من الفكاك ؛ فترتجف وترتجف وتتصبب :

- اهدئي أميرتي .... اهدئي يا ربة الجمال .... اهدئي تماما .
- ما بال هذا الصوت يتلون ... أين لهجته الآمرة تلك من هذه الليونة ؟! وما هذا النفاذ الذي في صوته يتغلغل في ....

قالت الأميرة ذلك في نفسها لما أعاد مقولته عليها ثانية مضيفا :

- انفضي عنك دثارك هذا أميرتي .... وخذي ردائك هذا فارتديه ... انهضي وأكملي ارتداء ملابسك .... يا لرقة اختيارك لملابسك أميرتي ... تشبهين أمك – مولاتي الملكة – في اختيارها لملابسها !!
- أمي .... من أنت ؟ .... أين أنت ؟!
- طالما أغلقت عينيك أميرتي الصغيرة فلن تريني ! افتحي عينيك التفاحتين ودعيني أنهل من نهريهما الخالدين عسل الجمال أميرتي !

أدركت الأميرة أنها مازالت تغلق عينيها متدثرة بأكملها تحت ملاءة السرير فرفعت جفنيها قليلا متوجسة خيفة ، ثم سرعان ما أغلقتهما إذ لم تستطع تحمل قوة النور الساطعة أمامها التي تخترق حجب الملاءة وترسم رسم آدمي خلفها ؛ تدل هيئته أنه رجلا .

- انهضي أميرتي وفكي غلالتك تلك .
- أغلق عينيك ، فما رأتني عين رجل من قبل .
- سأغلق عيني ولكن أسرعي .

لم تملك الأميرة إلا الانصياع لأمره من قوة نفوذ صوته داخلها ؛ ففتحت عينها مرة ثانية وانتظرت برهة لتعتاد النظر . ثم رمت بطرف ملاءة السرير فهالها الجمال القابع أمامها كأنه الساجد المتعبد ، يتأملاها حتى نسيت تماما أمر القبح وأمر ارتداء ملابسها مشدوهة ، شاهقة ، مختطفة من دهشتها سؤالا ضعيفا .... مأخوذا .... ظامئا .... شاهقا .... مرتعشا :

- من أنت ؟
- عبد من عبيد جمالك مولاتي ، ربة الجمال ، وإلهة الفتنة " سندس بان " .... صنيعك أنا مولاتي ومفتونك الأول وإن لم أكن الأوحد ! فالخارج يعج بعبادك الذين

يحترقون لهاثا وانتظارا لخروجك عليهم لتباركي مشاعل عشقهم المتقد لجمالك مولاتي .

لم تسمع الأميرة مما قال كلمة واحدة إذ كانت تتأمل ملامحه وتنتفض من هالة النور الملتف بها جسده المفتول ؛ فتمد أناملها بلا إرادة منها تتحسس دفء النور الدافق من جسده فلا تعرف هل لامست مسامه أم اخترقتها من شدة شفافيتها أم حجبتها هالة النور ؛ فانسحب منها السؤال ضعيفا .... مأخوذا .... ظامئا .... شاهقا .... مرتعشا :

- **قلت من ؟**

كانت شفتاها في تلك اللحظة مرتعشة .... فاغرة.... مبتلة :

- **عبدك مولاتي وابن عم مولاتي الملكة !!**

--

(٢)

سيــرة الارتــواء

(أ)
الأميـرة درة الزمـان وأميـر الجـيـوش

- نما إلى سمع ملكنا أن أمير جيوش الملك الأعظم جاء بنفسه – على رأس فرقة من جيشه الذي دانت له الممالك وطويت تحت لواء سلطانه الجيوش جميعا ، واستقام حكمه يمينا ويسارا فوقا وتحت بما لا يتخيله عقل ولا خطر على بال جني أو بشر -
قد جاء غازيا لمملكتنا التي على اتساعها طولا وعرضا لم تكن إلا مدينة صغيرة من آلاف مدائن الملك الأعظم .... فما كان لنا من سبيل إلا انتظار الفناء تسليما .
..... تنفس كل من بالمملكة الصعداء لما أعلن رسل أمير الجيوش أنه قادم يخطب ود " درة الزمان " الأميرة ابنة الملك ... فما كان علينا إلا أن نلبي شاكرين ؛ فتجهزت المملكة جميعها كبيرها وصغيرها لاستقبال الحدث الأعظم في حياتها كلها ؛ أقيمت الأفراح شهورا وليال، وأغدقت النعم على كل من كان بالمملكة حتى كان يوم الرحيل، فما كان لملكنا إلا مطلبا واحدا طلبه على استحياء :
- أود لو تأخذ الأميرة " العروس " - إن رق لكم ذلك وأذنتم – أحد أبناء عمومتها الصبية ، حتى إن شب وصار يافعا أرسلته يطفأ حرقة أمها الملكة لغيابها بطيب الأخبار .

فكان له ما طلب ، فكنت الوحيد الذي رافق جيش أمير الجيوش مع " درة الزمان " مولاتي جميلة جميلات عصرها؛ التي لم يسمع عن شبيه لحسنها في كل الممالك .

.... تربيت بالقصر وأحسن الأمير معاملتي وعهد بي إلى كبار معلميه ليعلمونني فنون العلم والسحر والطب والحكمة وكل ما وصلت إليه علومنا جميعا ، وقد أتقنت وترقيت وازددت مكانة عند الأمير ، وكان كلما أثنى علي معلما من المعلمين ازداد كرم الأمير معي ؛ فلما صار هو الملك بعد موت الملك الأعظم قربني من مجلسه الملكي فكنت أصغر من يجلسون في مجلسه وأقرب من يجالسونه بعد معلميه إذ كان الملك رجل علم ومعرفة وينزل العلماء في مجلسه منازلا رفيعة ، ويغدق عليهم كل مساء بالنعم والمفاخر ؛ ويطالبهم دائما بالمزيد ....

لكنه ....

في غير حضرة وزرائه ومعلميه يجلس شاردا ، مأخوذا ، مسروق اللب ؛ يحادثني بأحاديث لا لأفهمها على سعة ما تعلمت ! ولما يضج بالملل ويسأم من السأم ويأخذه الشرود مآخذ عميقة ... عندئذ يتخفف من زيه الملكي ، ويذهب ليأخذ حمامه اليومي ؛ فنمر بنفس الخطوات وبذات الدقة :

يأخذ حماما ببطء شديد وهو مغمض العينين في استرخاء تام ثم يخرج مستترا وراء ستار ثم يدخل عليه رجلا مفتول العضلات ، اختاره الحراس بعناية وقد نظف جيدا ودلك جيدا وتطيب جسده بخير الأطايب وترك عاريا ، وبعد أن يسر له الحاجب بأمر نافذ يندهش له الرجل – وكلهم كانوا يندهشون مولاتي – ويتراجع للخلف ببهت – كلهم كانوا يتراجعون مولاتي - يعاود إذ تصدمه عين الحارس الملهوبة بالقسوة ، وسيف السياف المشرع فوق رقبته ؛ لا يترك له الفرصة لأن ينبت ببنت شفة ؛ فيدخل خلف الستار مفرود الجسد موفور القوة ... أسمع بعدها بقليل صوت الملك يئن خلف الستار يتأوه متوجعا ، صارخا بالمزيد .... ثم يصمت قليلا ، بعدها يعاود الأنين والصراخ والتأوه والتوجع والاستزادة ، ثم يصمت برهة سرعان ما يستعيد صوته الملكي بعدها بأمر نافذ :

- كفى واخرج الآن .

لحظتها تستعيد يد السياف خشونتها على السيف وترتفع وما أن يطل الرجل مهدود القوة من بين خصاص الستار حتى تطير رقبته بضربة واحدة لا تخطئ أبدا في ماء الحمام ، إن هي إلا لحظات مولاتي تمر يكون الحراس فيها قد سحبوا فيها جسد الرجل ، وجهزوا طريق الملك للحمام السريع الذي يكتفي فيه بالاغتسال ثم يرتدي ملابسه التي ما أن تكتمل حتى أنسى ما رأيت وأستعيد عشقي لصولجانه الملكي .

كل يوم مولاتي أشاهد ذلك وبنفس الدقة والتفاصيل يحدث أمامي صامتا ولا أسأل ، لا يتغير في كل ذلك سوى الرجل قوي البنية مفتول العضلات ، مشدود القامة !

ولما حاولت مولاتي أن أتشاغل عن حضور طقس الحمام مع الملك ؛ أمرني بألا أعود لتلك المحاولة مرة أخرى ، كان الأمر مولاتي بنبرة صوت قاسية لم أعتدها منه فما عدت لتلك المحاولة مرة أخرى .

.... ولما ينتهي من مجالسة علمائه ووزرائه وحكام أقاليم مملكته الذين يتوافدون بمواعيد محددة كل عام فيقابل منهم كل يوم ما يقرب من عشرة حكام ، ما أن يخلص من ذلك كله حتى يدخل ويدخلني معه إلى مخدع مولاتي الملكة بعد خروج الوصيفات بوقت يكفي لأن يفرغ المخدع من روائحهن إذ أن الملك ما أن جلس على كرسيه حتى أمر ببيع الجواري والوصيفات وتبديلهن بالعبيد مفتولي العضلات ، ولولا رغبة مولاتي الملكة في أن يبقي لها بعض الوصيفات يتدبرن أمورها لخلا القصر منهن تماما ، وكان لا يقرب أيا منهن .... كنت أظل معهما كل مساء حتى ساعة نومي فلا يتركني إلا عند الباب لأخرج إلى حجرتي – أقرب الحجرات من مخدعهما – لكن ....

لكن الحال لم يدم طويلا على ذلك .... مولاتي !

(ب)

وكنت أنا المولودة

..... تململت الأميرة فما عادت تعرف هل تتابع

بإصغائها المشدود كأن على رأسها الطير

فتبتلع شهقة الالتياع في جسدها لفتنته

أم تترك لعينيها العنان تجوس في ميادين

البهاء القابعة أمامها ، لكنه لم يمهلها ....

- نادتني مولاتي " درة الزمان " ذات يوم وصرفت الوصيفات ، وجلست صامتة واجمة لفترة طويلة ، تحاول أن تنطق لكن لسانها يرتد إلى حلقها فتعود إلى الصمت مرات حتى تجرأت على سؤالها :

- ما بال مولاتي الملكة ؛ هل يشغلها شاغل ؟ مريني ألبي أمرك شاكرا ، ساجدا بين يديك .

فعاودت محاولاتها مرات وأنا استحثها ؛ إلى أن استجمعت شتات نفسها وباحت دفعة واحدة وعينيها لا تفارق أناملها المعقودة المتشابكة :

- لقد أزف موعد ولادتي ، والملك – مولانا المعظم – لا يعلم حتى الآن خبر حملي ، ولقد أعددت لك لترحل يوم ولادتي سرا ؛ ستدبر إحدى وصيفاتي لك مخرجا من القصر لتخبر أهلنا بذلك ولا تعود .

عقدت لساني الدهشة ، حاولت أن أنطق .... أبارك لها الأمر ولكن خبر عدم علم مولاي الملك ... ورحيلي سرا ألجمني ، حاولت أن أستزيد فنهرتني ، فاكتفيت وخرجت لا ألوي على شيء .

لكنها وبعد يوم واحد استدعتني وأخبرتني على وجه السرعة ، أنها ستلد اليوم وأن الملك مازال لا يعرف :

- تكتم الأمر واتبع وصيفتي التي ستخرجك من القصر .

لكنني لم أفهم فقالت أنها حاولت التخلص من الجنين لكنها لم تستطع فظلت تخبئ عنه الأمر وتستدبر أمرها حتى يفعل القدر ما شاء بها .

.... ولم أفهم – مولاتي – لماذا حاولت التخلص من الجنين ؟ وكيف استطاعت أن تخفي عنه الخبر وهما ينامان معا في مخدع واحد وسرير واحد ؟؟ سألتها فلم تفصح أكثر مما قالت !

ولما لم أد إجابة لأسئلتي بكيت لأن في الأمر سر لا أعرفه وشر سيقع ، لا أحدد مداه لكنه حادث لا محالة ؛ فقربتني منها واحتضنتني ثم قالت لي :

- أو لم تسأل نفسك حتى الآن لماذا لم ألد حتى الآن وزواجي من الملك دام خمس سنوات ؟ أو لم تسأل نفسك حتى الآن لماذا لا يقترب الملك من الوصيفات ككل الملوك
لا ترهقني أكثر من ذلك فآلامي لا تحتمل ، أكاد أتمزق ... لقد دبرت أمرك فاتبع وصيفتي وارحل .

لم تكد مولاتي تكمل كلماتها الأخيرة حتى صرخت صرخة مديدة انشق لها صدري ، ودخلت على إثرها الوصيفات يجهزن لها الفراش للولادة ، أشارت إلي إحداهن أن أتبعها فخرجت ممزق اللب ...

أفقت على أصابع الملك في تلك اللحظة تشير إلي أن أتبعه في طريقه إلى المخدع على غير عادته في تلك الساعة ، فشهقت خشية وتوقعا لكل ما سيحدث ، لم يمهلني التراجع أو الوقوف إذ أمرني بقسوة أن أتبعه فدخل المخدع ووقفت عند الباب .... نظر إلى مشهد الوصيفات الملتفات حول الوالدة فصعقن في أماكنهن حين لمحنه ؛ لم ينطق بكلمة فقط استدار خارجا آمرا إياي أن أتبعه .... لم يندهش ... لم يسأل فقط ألقى نظرة وخرج ..... جلس على كرسيه الهزاز في البهو الملكي وأمرني بالجلوس ؛ صرف الحراس جميعهم وغاص في الصمت طويلا ... وجلست لا أعي إلا ما أرى ، والساعات تمر قاتلة ... عيني لا تفارق موضع قدمي وصمته لا يلوي على شيء ؛ ظللنا كثيرا على هذه الحال حتى جاءني صوته مرتعشا ، غريبا تبينت فيه سؤالا عجيبا لم أفهمه أولا ؛ حتى استرجعته للحظة مندهشا مبهوتا :

- هل أنت الأب ؟
- الأب ؟!
- هل أنت الأب ؟؟
- الأب ... الأب لمن يا مولاي ؟!
- للمولود .
- أي مولود يا مولاي ؟
- سآمر الحراس بتمزيقك قطعة قطعة ساعة بعد ساعة وسأطعمك نتنك المبتور حتى تتلاشى إن لم تعترف لي .
- بم أعترف يا مولاي ؟ أو لست – اغفر لي سؤالي – أو ليس ... أعني جلالتكم ... ولكن سؤال جلالتكم .... أعني أن ما أفهمه من سؤال جلالتكم أن .....
- افهم ما تفهمه ولكن أجبني عن سؤالي في التو .
- أليس جلالتكم الأب يا مولاي ؟ ليت لساني قطع قبل أن ...
- أنا السائل أيها الأبله ؟وأنت المجيب .... أجب قبل نفاذ صبري عليك .
- لا .... لست الأب يا مولاي .
- أتقسم لي أنك تقول الصدق .

- ومتى كذبت في حديثي مع جلالتكم ؟ ... أعني ... أقسم يا مولاي لجلالتكم أني أقول الحق .
- بل تكذب الآن !
- أقسم لجلالتكم أني أقول الحق .... لست الأب للمولود الآن يا مولاي .

ترك الملك كرسيه فتابعت اهتزازته ، لا قدرة لي إلا على النظر إلى الكرسي ، أكاد أرى يد السياف تستعد ، تحرك الملك خطوات ثم أشار بالسبابة في وجهي

- بل تكذب ! ... أنت الوحيد الذي يمكن أن يفعلها .. أنت .

ثم نادى الحراس ، وطلب مني البقاء بحجرتي حتى يصدر أمرا بشأني .

سمعت وأنا بحجرتي أن مذبحة تمت في بهو القصر الملكي أمام عين الملك حيث جمع حراس القصر مصطفين وقضى الليل كاملا يشهد المذبحة حتى فرغ من حراس القصر جميعا وتناثرت أشلائهم في دوائر متداخلة تملأ ساحة البهو ، ثم أمر بتجهيز ألف حارس بديل من فرقته الخاصة ، وعين سيافهم أميرا للحرس ، ثم نادى السياف القديم وكان هده التعب وطير الملك رقبته بنفسه ... ثم نام ما تبقى منها وقد هدأ زفيره وتباطأ شهيقه كعادته .

- وكنت أنا المولودة ؟!
- وكنت أنت المولودة أيتها الأميرة الجميلة يا من فاق جمالها حسن أمها " درة الزمان " ربة جمال عصرها .

(جـ)

الحكاية لم تنتـه عنـد هذا الحد أمـيرتـي

دارت برأس الأميرة الدوائر وتغلب على انبهارها
الذي كاد أن يخلب لبها بهذا البهاء والجلال القابع
أمامها يروي ما لا طاقة لها به ....
فنهشت الأسئلة رأسها رقيقة التكوين ....

- مادام الملك قد فعل بالحراس ما فعل ، وقد قتل أمها – على ما علمت – وتخلص من كل من كان موجودا وقتها ، فلماذا لم يتخلص منها هي ؟! وما كل هذا النعيم الذي ترفل فيه ؟! لماذا أنشأ هذا القصر – تحفة الزمان هذا – لي ولوصيفاتي ، لماذا حرم الزواج في المملكة منذ مولدي ؟! وما الحكمة في أن نكون نحن أخر أجيال تلك المملكة ؟ ! هل نكون نحن أخر أجيال المملكة حقا ؟ هل حكم الملك على شعبه بالفناء لأجلي ؟
أن كان الأمر كذلك فلماذا أبقاني إذا وأحاطني بجميلات المملكة اللاتي في مثل سني بين جنبات هذا القصر - هذا الجمال - الذي نغوص فيه تحت قبة سمائه التي تغرقه بدوائر النور الملونة من أول خيط للشمس وحتى أخر انسحاب لها ؛ تلك التي تخايلنا فنكاد نحيا فيها ظلالا ؟!
لماذا يحرم دخول أي رجل من باب القصر ... ؟
وما بال هذا الجيش الذي يحكون عنه ؛ الذي يقولون أنه رهن إشارتي ينتظر رجاله الزواج بوصيفاتي جميلات المملكة – هذا الجيش الذي كان من الممكن أن يكون قد تزوج رجاله منهن من سنين طوال لو أنني قد وافقت ؟ .....

انتبهت الأميرة على صوته ناعما يدق على أذنها دقات تكاد تشعر بها أناملا رقيقة :

- أين كنت ؟
- وكنت أنت الأب ؟!
- الأب لمن ؟! لك أنت ؟!

اسمعي أميرتي الجميلة – يا ربة الجمال – فالحكاية لم تنته عند هذا الحد ، فبحجزي تأكد لي لي أن الملك لا يشك في أقوالي ولكن كان عليه أن يجيب عن أسئلته المعلقة وإلا فما كان أسهل عليه من أن يأمر السياف فيقطع رقبتي في الحال ، لكنه لم يفعل .

- وإن لم تكن أنت الأب ؛ فلماذا تم مسخك على هذه الحال التي رأيتك عليها ، ومن فعل بك هذا إن لم يفعل ؟!
- ألم أقل لك – مولاتي – أن الملك كان رجل علم وحرب وحنكة ووريث عائلة لها تاريخها المديد في الحكم ؛ لذا لم يتخذ قرارا مهما كان إلا بعد بحث وتقصي وسؤال ... أجل قراره حتى تقوم الوالدة من ولادتها معافاة ، لسبب في نفسه ؛ فلما قامت صرف الوصيفات ودخل عليها مخدعها كما كل أب يدخل على زوجته الوالدة لتوها .... هنأها على سلامتها واحتضن الطفلة - أنت – وكنت آية الجمال فلما رآك بهت وخر ساجدا يقبل الأرض بين يديك وأمر بإقامة الأفراح ليال سبع وإغداق النعم على مدائن المملكة جميعها وإذاعة خبر ميلادك في الأرجاء جميعا ، وأطلق عليك اسم ربة الجمال " سندس بان "وأمر بتسمية الجيوش التي كانت تتأهب للمعارك الموسمية في تلك الآونة ، كل ذلك على مرأى ومسمع من أمك الملكة التي كانت ترتجف وتأخذها صفرة الموت كل مأخذ ؛ تدور بها وتدوخها يمينا ويسارا ، فوقا وتحت ، فلا تعي مما يحدث إلا القليل فها هو يدخل عليها ولم ينته منها كما توقعت لحظة دخوله عليها ....
ولما انتهى من إصدار أوامره بكل المراسم والاحتفالات ، انحنى وقبلها في جبينها وغاب في قبلته طويلا وملامحه تنطق بكل معان الرقة والدفء ، مسح عن جبهتها عرق الموت النازز ؛ مبتسما كأرق ابتسامة تذيب قائلا :
- ألن تذكري لي من يكون الأب ؟!

فلم تحر جوابا ، بل غاصت في نفسها تتوارى وعينيها لا تحتمل النظر في عينيه المثبتتين فيهما تحاولا قراءة الجواب منهما ، تعلق شهيقها لحظة كأنه يتردد في الانقطاع ؛ فاسود وجهها لحظة أن تأهبت للثم كفه ، وانقطع النفس عنها فانفلتت يدها من كفه المضمومة تعتصرها إلى سلة ضام الأرواح ، واستسلمت للغياب الطويل

... للمرة الأولى - مولاتي – طلب الملك كبرى الوصيفات ، آمرا إياها بتدبر أمر الجثة وتكتم الخبر حتى تمر الأيام السبعة ، واختار وصيفة للعناية بأمر الطفلة ، ثم

دخل عليَّ حجرتي المحتجز فيها فقمت في التو وسجدت بين يديه ، لكنه أنهضني وحكي لي ما حدث لي كله قائلا بأنه كان قد تركني لأنها كانت موجودة مازالت ؛ وسيعرف منها من هو الأب ؛ لكنها ماتت وتركت الإجابة معلقة :

- ومازلت آمل في معرفة الحقيقة منك وحدك !
- لقد ذكرت لجلالتكم الحقيقة ، وليس عندي ما أضيفه لعلم جلالتكم بهذا الشأن ، وإن كان يهمني مادمتم جلالتكم – حاشا أن أنطقها – تقولون ... أعني .... أنكم لستم أب الطفلة ... أعني يهمني كابن عم مولاتي الملكة أن أعرف من يكون الأب .... ولكن إن راق لجلالتكم ألا أعرف فإنني أستأذن جلالتكم – تغفر لي مكانتي المعروفة عندكم – في الرحيل ، فلم لي مقام في حماكم بعد ما حدث .

.... كنت قد رتبت الكلمات في نفسي وحفظتها عن ظهر قلب حتى يمكنني النطق بها دفعة واحدة بلا تردد لعلمي بما سيكون لذلك من تأثير على جلالة الملك ، لكنه فاجأني بقوله :

- بداخل تكمن الحقائق ووحدك العالم بكل الأسرار .. وحدك القادر على مشاركتها الفعل ، وإلا فمن يكون الأب ؟!
  وحدك القادر على الإجابة .... وعليَّ أن أجد إجابة كل أسئلتي قبل أن أقرر بأمرك شيئا ، من تلك الوصيفة التي كانت تخرج بك قبل مجيئي إلى المخدع ؟!
- لا أعرفها ، فليس لي تعامل معهن
- تستطيع التعرف عليها
- نعم

فأمر بإحضار الوصيفات أمامي ؛ فحددتها وانصرفت الباقيات سألها الملك :

- من أمرك بتجهيز الرحلة ؟
- مولاتي الملكة يا مولاي
- لماذا
- لا علم لي
- هل اختارتك كبيرة الوصيفات للعناية بأمر الطفلة ؟
- لا يا مولاي ، لم أنل ذلك الشرف بعد .

- يا حارس ..
- لبيك مولاي ..
- تحرق جثتها في البهو الملكي الليلة .
- السمع والطاعة مولانا المعظم .

وانسحب الملك – مولاتي الأميرة – ولم أره إلا بعد عدة أيام من تلك اللحظة .

- إذا فالملك لم يقتل أمي كما تردد .
- لا ، لكنه أمر بحرق جثتها بعد عشرة أيام من وفاتها أمام عيني في مخدعها الملكي ، ثم سلمني لأحد السحرة في البهو الملكي .
- ---

(د)

لـيـس أدل علـيَ مـن ذلـك

استعصمت - أميرتي – لكن

قدرته فاقت كل شيء !!

.... دخلت البهو الملكي كأني أدخله لأول مرة ، ولعلي كنت موقن بأنها الأخيرة ، فجعلت أتشاغل عن العراف والساحر بالغوص في تفاصيل الأعمدة ، والأرائك وآي الجمال المتربعة فوق الجميع لا تجرحها سوى يد السياف المفتولة تتأهب عن يمين الملك تنتظر الإشارة ... غصت مدركا مصيري مستعينا بما تعلمت من فنون السحر على قراءة أفكار الساحر حولي ، لكنه كان سدا منيعا حتى أمره الملك بالبدء ، فتحايلت عليه ببعض الحيل التي تعلمتها ، لكنه كان أقوى مني ؛ وقبل أن يتمكن مني تماما استأذنت الملك في الإدلاء بسر ، فتهلل ، ورفع عني يد الساحر ؛ وكانت تلك أخر ما أملك بنفسي لأنجو ... قلت :

- ليس أدل على صدقي أمام جلالتكم من نبوءة عرافة معبد مملكتنا ...

ودنوت منه وأسررت له بالسر ، فشاور الساحر والعراف في الأمر فأمنا على كلامي ، فما فعل اعترافي هذا إلا أن ازداد الملك هياجا وتعنتا آمرا الساحر بالبدء في عمله بقوة فاستعصمت عليه أكثر بما تعلمت من أمور السحر وما وسعتني قدرتي ، وكلما تصبب عرقا من مقاومتي له أمره الملك – ويد السياف تؤيده – بالاستمرار قائلا :

- زد عليه ما وسعتك قدرتك ، فأنت ساحر المملكة الأول ومعلمه ، ضع مفتاحه تحت قدمي ابنتي ...

وكانت تلك هي أخر الكلمات التي سمعتها آنذاك إذ تمكن مني الساحر أخيرا ؛ فأصبت بإغماء ، ولم أع من أمري شيئا إلا وأنا أسعى في الصحراء ؛ أتعرف على هيئتي تلك التي رأيتني عليها ليلة أمس ... أعي تماما من أنا ولا قدرة لي على النطق ؛ أعرف أن مفتاحي تحت قدميك ورائحة جثة الساحر وجثة العراف بجواري تؤكد لي من أنا ؛ فليس أدل علي أكثر من ذلك !

... سعيت حتى ابتعدت عن الجثتين وانزويت أتدبر أمري ، زمنا طويلا مر عليّ وأنا اسعي مفتشا عن الطريقة التي يمكنني بها الوصول إليك حتى اهتديت إلى أن البداية هي الوصول إلى معلمي الأكبر الذي يمكنه التعرف عليّ وأنا على تلك الهيئة لسعة علمه ؛ وهو الوحيد الذي سيمد لي يد العون ما وسعته قدرته ؛ فكان علي الكثير لأفعله وسط مخاطر شتى أقلها عيون أي إنسان ؛ فلو رآني أنسي على تلك الحال لقتلني في الحال ؛ فظللت سنينا طوال أسعى على أقدامي الأربع أتحسس طريقي إلى هدفي الذي لا أعرف له طريق في ظلام الليل الدامس ... قابلت في تلك السنين من الأحداث ما يطول ذكره عليك الآن ، لكنني تجلدت بالصبر إلى أن وصلت إلى معلمي الأكبر ، وتحايلت صابرا حتى تعرف علىّ أخيرا .... ظللنا سنينا أخر وهو يجري عليّ تجاربه حتى نجح في أن يخفف من شروط عودتي التي فرضها عليّ ساحر المملكة ؛ فمكنني في حال الوصول إليك من الظهور أمامك - بعد الجلوس تحت قدميك – على هيئتي الحقيقية وفك عقدة لساني قبل وصول الملك ؛ لكنه فشل في إلغاء شرط تعرفي على الأب وتسليمه للملك قبل الظهور إلى الجميع قائلا :

- إن ذلك قدر لا راد له . وها أنا أميرتي قد وصلت إليك وتمرغت تحت قدميك المقدستين .

(هـ)

نبوءة عرافة المعبد الملكي

... كانت الأميرة تنصت بكل جزء من جسدها إليه

إلا عينيها التي تواريهما عنه - حتى تتمكن من

الإنصات – وقاية من أسر فتنة جسده التي تشعلها

ومداراة لدموعها عنه ، لكن صوته تراخى تماما

وتحشرج واختنق وهو ينطق كلماته الأخيرة حتى

توقف تماما .....

فوجئت الأميرة فنظرته من بين لآلئ دموعها فهالها أن ترى ملامحه – تلك التي تذوب رقة وترسل سحرا يخلب لبها – تختلج ؛ وعينيه تنهمر دموعا تتأرجح بين اللؤلؤ والياقوت فتتمازج وتموجات وجهه المحتقنة بالعويل الصامت ، فاحتقنت رغبتها في احتضانه ؛ فلم تدر إلا وهي تلف رأسه بيديها وتوسده صدرها فانهمرت دموعها نهرا فوق رأسه وهي تمسح دموعه فلا تجف بل تتساقط على جسدها قطرات تذيبها في ظمأ ولهفة فتود لو قالت :

- إنني فخورة بك لأنك استطعت أن ....

وتود لو ... وتود لو ... حتى اختلطت مشاعرها فما عادت تحدد أي المشاعر تصدق .... إذ تتملكها الرغبة أمام سكونه وبكائه في صدرها كطفل في أن ترضعه كما الأم ثديها وأمام صولجان جلاله ونوره المشع من جسده وعزة رجولته أن تطفئ ظمأها في لهيبه .... ظللت أميرتنا تتأرجح بين الرغبتين تارة تمد إليه صدرها تحاول أن تلامس شفتيه الحرون لعين صدرها المتآكلة لإرضاعه ، فتربت على ظهره ، وتمسح على شعره وتهدهده كأم ؛ وتارة تتداخل وتنفرد في جسده لتشبع نهم جسدها

بملامسته ، وهو بين الرغبتين يتهادى رويدا رويدا حتى انتفضت ملتاثة مهتاجة فجأة إذ لوعها خاطر أن الذي بين يديها الآن .... هو أباها .

انتفضت مبتعدة عنه متداخلة على نفسها تنظر إليه بعين الابنة للأب ؛ لكن خلاياها كلها تنطق بلا ... ليس هذا هو الأب . ؛ فيتلألأ شعورها المهتاج داخلها وتضطرب خلاياها ، حتى أسقط في يدها فصرخت :

- **تكاد تمزقني ... أمور عجيبة تلك التي تحدثني عنها الآن تجيب لي عن أسئلة طالما جننت بها وظللت طوال عمري أحاول تفسيرها دون أن يخطر لي ما جئت به أنت فتفتح عليّ أبوابا لأسئلة جديدة لا إجابة عليها عندي ... كل خلية في جسدي تنطق بأنك لست الأب .... أصدقك ، بل أكاد أجزم بأنني قد خلقت لك وأنك خلقت لي ... تنادي كل خلاياي كل خلاياك أن يتداخلا فنكتمل ...**

ضرب يديه في الهواء ، ثم ضمهما إلى صدره رافعا إياهما إلى أعلى ثم إلى أسفل ولمعت عيناه لمعة خاطفة تداركها سريعا قائلا بهدوء :

- **وهذا هو عين ما قالته عرافة المعبد الملكي لعمي الملك يوم رحيلي مع مولاتي الملكة إذ تنبأت بأنني سأكون زوجا لابنة مولاتي الملكة ، وذلك هو عين ما أبلغت الملك به أمام الساحر والعراف كدليل دامغ على أنني لست الأب .**
- **زوجا لي ؟!**
- **نعم ، نعم وإلا فما خبر الظمأ الذي لا راد له عندك ؟!**
- **الظمأ ... ومن أعلمك بخبر الظمأ ؟!**

--

(و)

سـيـرة الارتــواء

هاأنت قد امتلكت زمام تلك المعصومة ،

فاملك عليك زمامك ... فإن استعصمت

بك فلا راد لأمرك !

.... فلما بلغ به الصمت مبلغ الظمأ في نفس الأمير ، عاودت ترديد سؤالها

- ومن أعلمك بخبر الظمأ ؟!
انطق ... لماذا لا تجيب ؟ ... بات صمتك سهاما ... ألا تنطق ؟ ... أجبني عن سؤالي ... أكاد أنفجر .... ألا ترى النهار ينسحب منا ، والشمس تغربل أخر الدقائق فيه ... لو لم يصل الملك خبرا عن تفسير لما حدث ليلة أمس لدك حراسه القصر .... ماذا سنفعل في الخادمات اللاتي لابد وأن اندست إحداهن وسط عسكر الملك فأخبرتهم بأمرك – هذا مؤكد حدوثه – ولابد أنه مرسل رسوله لا محالة والوصيفات محجوزات ! .... انطق ... ماذا سنفعل ... أتراك فقدت النطق ؟! .... ألا ترى ما نحن فيه ؟! .... أكاد أسمع وقع خطوات حراس الملك بالقصر ...... ألا تسمع ؟! ... سأنادي الوصيفات إن لم تنطق .... أكاد أجن ...
- لو دخلت عليك وصيفاتك افترقنا إلى الأبد ، وما عاد بوسعنا فعل أي شيء !
- وهذا عين ما تريد ؟!
- هل قلت لك ذلك ؟!
- فم بال صمتك هذا ... هل يمكنني أن أفهم ؟!
- كنت أفكر في أمر الخروج ، فأمامنا الكثير لنفعله حتى نخرج دون أن يراك أحد
- فلنخرج إذا ، الوصيفات مازلن في حجراتهن .

- وهل يقتصر الأمر على الوصيفات ؟! ماذا سنفعل في الخادمات والحراس خارج القصر الذين يقاتلون للظفر بأي خارجة منه ... أنا لن يراني أحد ... المشكلة أنه لا يمكن الخروج على هيئتك تلك !
- ولن يمكننا البقاء أكثر من ذلك ، خطوات الحرس تدق في أذنيّ تكاد تهز أرجاء القصر .
- ليس أمامنا إلا أن ننفذ ما أمرني به معلمي الأكبر .
- افعل ما شئت فما عادت لي قدرة على الاحتمال !
- سنتزوج !
- ماذا ؟!
- سنتزوج !
- وما حاجتنا للزواج ؟ ليس لدينا وقتا لنضيعه .

دارت بعينيها في أرجاء المخدع كالملسوعة ... كان النهار قد انسحب تماما ودوائر الضوء الملونة التي تكسو المخدع تلفظ أخر ما لديها ... تكاد تتلاشى .

- سنتزوج حتى يمكنني تحويلك فتسكنين دمي ، وأخرج بك دون أن يرانا أحد ...! لقد حسب معلمي حسابا لتلك الخطوة !
- وما حاجتنا للزواج ؟! افعل ما شئت قلت لك وبسرعة أكاد أختنق !
- يلزمنا الزواج أميرتي ... لابد منه حتى يمكننا أن ...
- افعل ما شئت ... خطوات الحراس طبول في أذني ... ألا تسمع ؟!
- على رسلك أميرتي ....

قال ذلك وهو يضمها بقوة إليه :

- سنتحرر معا من القيود !

حاولت أن تتخلص منه حين لمحت ومضة خاطفة في عينيه أرعبتها قائلة :

- أية قيود تلك ... الملك لن يمهلنا !
- لا عليك من ملكك هذا الآن ، فهو من هذه اللحظة لا سلطان له عليك ... ها أنت دخلت حدود مملكتي ولن يستطيع النفاذ إليك أحد ... وجنده ، جنده ما هم إلا دمي في جرابي ... علينا أن نسعد أيتها الجميلة بتحررنا من القيود معا .

تصاعدت نبرة الخشونة في صوته وتلونت حتى صارت قسوة وهو يضمها إليه ناظرا في عينيها مثبتا عينيه فيهما ... حاولت أن تتخلص منه قائلة :

- **ألن تفي بوعدك لي ....**

عاود ضمها وعينيه تختلج بألوان شتى :

- **ليس قبل أن تشبع عيني من جمالك أيتها الأميرة ، يا ربة الجمال ... ليس قبل أن أدخل عرقك في مسامي ... وأتنفس ريحك الطيب ....**

واعتصرها في صدره وعينيه تموج بألوان التعبد في محراب عينيها ؛ فاشتعل الظمأ فيها وعاوده اجتياح لذة يد الوصيفة وشفتيها ، ولذة حلم الأمس ، تكاد تشعر بذات اليد وذات الخدر يسري في عروقها تائهة في صدره ، غائبة مغمضة العينين تشعر بلهيب الظمأ داخلها يتصاعد فتحترق ... ويتصاعد فتحترق ... ويتصاعد فتحترق ، فتتلظى فتحترق وتتلظى .... حتى وصل إلى ذروته فلم تعد تحتمله ؛ فشهقت شهقة كأن الروح تنفصل عنها ، فاهتز بها هزات عنيفة ، فتقاطرت عرقا وبدأت تشعر بانسحاب الظمأ يبدأ من أطراف أصابعها ويمتد بطيئا بطيئا منسحبا إلى أعلى كطابور من النمل يسعى في أوردتها فيتقلص جسدها ، ينسحب الظمأ إلى أعلى رويدا رويدا فيتقلص جسدها رويدا رويدا ، ينسحب فيتقلص ، ينسحب فيتقلص وينسحب حتى وصل إلى صدرها فشعرت كأن نارا تخبو جذوتها داخلها ؛ كأنها تتلاشى شيئا فشيئا ووخز أبر مسنونة يغطي جسدها .... يمزقه ... فشهقت شهقة صارخة وفتحت عينيها فإذا بها تحتضن مسخا شائها ... له عينين مغمضتين وأنف بارز كبير يتوسط رأس مثلثة مطموسة الملامح بأخاديد متعرجة تغطيها أشواك قنفذ حادة .... انتفضت مغمضة العينين تحاول أن تتخلص منه ؛ فتفشل ، فتحاول فتفشل ؛ وتحاول فتفشل ؛ وصدى قهقهته وهو يعاود ضمها إليه هازئا يردد :

- **ما بك يا ربة الجمال !!**

مادت بها الأرض ومادت تحت جسدها ووخز أشواك القنفذ الحادة تمزق جسدها ؛ فتصلبت وشعرت بأنها صارت جزءا لشجرة تتفصد بوخز الأشواك فيتساقط لحاؤها حتى انقسم جذع الشجرة إلى نصفين ، خرجت منه أفعى كبيرة تتلوى بجوع يمزق أحشائها وتتشبث به ... قهقه صارخا فيها وعيناه المثبتتان فيها تلهباها جوعا :

- اتركيني وشأني .

فتركته طواعية مستسلمة والجوع يدق بطبوله في جسدها كله ؛ يمزقها فتتلوى ألما

(ز)

طـوفـان السـمـع والطـاعـة

قهقه المسخ الشائه أمرا الأفعى : - اتبعيني

فتبعته زاحفة في رضوخ عجيب ،

خرج فخرجت .

كانت الحجرات مفتوحة الأبواب ؛ تطل من كل باب منها رأس مدببة لأفعى كأنها جمدت مكانها لحظة استطلاعها لأمر ما ، وأحيانا تطل رأسان لجسدين متداخلين . ... أشار إليها بأن تبتلع الأفعى الأولى ؛ فابتلعت ، فزادتها جوعا ، وأشار إليها بابتلاع الجسدين المتداخلين ؛ ففعلت ... مضى فمضت ، وكلما مروا من أمام باب أشار إليها بابتلاع ما يخرج منه ؛ فتفعل ، وتتلوى جوعا أكثر ؛ تبحث عينيها وتفتش وهو يمر بردهات القصر وممراته ردهة ردهة وممرا ممر ، وكلما مروا أشار فابتلعت ما يقابلها من أفاع وكلمات :

- السمع والطاعة " مولانا المعظم " .

تتردد صدى لقهقهاته ؛ تزيدها جوعا .

مروا بسراديب القصر كلها وفتشوا كل جزء في جوانبه فلم يبق منه إلاها وهذا الآمر – صاحب الجسد الشائه المغطى بأشواك القنفذ – والترديد الجماعي :

- السمع والطاعة " مولانا المعظم " . ... صدى لقهقهاته .

فقط يشير إليها فتمر حسب إشارته ؛ يشير فتمضي ..... ويشير فتقف . يشير فتبتلع ويشير مقهقها فيختفي ركن من الأركان . ..... فيشير ... يتهدم صرح .... ويتردد رجع الصدى :

- السمع والطاعة " مولانا المعظم " .

.... حتى اخترق أبواب القصر جميعها إلى الغابة لتي تنحدر لأسفل الربوة ، وجسدها ينتفض جوعا ، تتبعه ... ينزل المنحدر بخطى بطيئة ويقهقه ، وكلما خطا خطوة احترقت الأشجار الموازية لتلك الخطوة وخبت نارها سريعا وصارت رمادا . .... يتصاعد فحيح رغبتها في الالتهام كلما زادت الحرائق حتى نزل أخر السفح فما عاد موجودا من القصر إلا الفراغ وبقايا خطواته على الطريق للقصر الملكي أعلى الربوة المواجهة .

لمحت ديدانا تتكالب حول أفعى وتتقاتل عليها ، تجمدوا في أماكنهم ما أن لمحوها فاحترقت شوقا ليشير إليها فأشار ؛ فابتلعتهم ومضت تتبعه يلهبها الترديد الجماعي الآتي من الأرجاء الفسيحة يردد :

- السمع والطاعة " مولانا المعظم " .... صدى لقهقهاته .

تزيدها رائحة الحرائق الممتدة نهما وجوعا وتعلق عينيها بسبابته ذي الأظافر تحترق رغبة للإشارة :

- أي أب للمولودة أيها الملك ..... المعظم هههههههههههاااااااااااه .

فيتردد صدى صيحته .....

- المجد لك " مولانا المعظم " ... المجد لك ... السمع والطاعة " مولانا المعظم ... السمع والطاعة .

... فيمضي ، تتزلزل الأرض تحته وتميد ... تطلق زفيرا فتخرج حمما وبراكين وتغرق مدنا ، وتتلاشى مدائن ، ويردد الفضاء :

- السمع والطاعة " مولانا المعظم " . ... صدى لقهقهاته ؛ ترديدا متواليا .

.... صارت الأفعى طويلة مديدة ونبتت لها أقدام قوية وذيل طويل تتبعه ؛ كديناصور مغطى الجسد بشعر كثيف طويل يتبع مسخا شائها تغطيه أشواك القنفذ ... يتضاءل جسده كلما تمددت حجما وإن ظل على قوته وسعة خطواته الممتدة في الأخضر واليابس فتفجر حمما فتفور الأرض بجثث كالديدان والأفاعي متفحمة تلتقطها الأفعى الديناصور تزداد بها جوعا ونهما ... وكلما اتسعت الخطوات ازداد ترديد الأرجاء الخاوية إلا منها ومنه :

- السمع والطاعة " مولانا المعظم " .

فيقهقه الشائه القصير وتسجد الأفعى الديناصور بين يديه تمزقها نوبات الجوع ، تتمرغ بين يديه وتتمسح به كلبوءة . ....

تنظر فلا تجد إلا الفراغ حولها ليس إلاها وهو وترديد الفراغ لصدى قهقهاته ، نظرت إذ تمدد كنقطة تائهة بين قدميها فشمت رائحة ؛ من زمن طال لم تشمها ... دققت النظر في أرجاء أرض المملكة ومسحتها بعينيها من مشرقها إلى مغربها ، من شمالها إلى جنوبها ، فتشت جحور الجبال المتهدمة والواقفة ؛ تشممتها حتى حددت مصدر الرائحة فاحترقت شوقا لأن يأمرها فتسد براكين الجوع المتفجرة داخلها ، لكن الرائحة تمايزت إذ اقتربت فسكنت ركنا من أركان جوفها ؛ فخالت نفسها أنها يوما ما كانت أميرة جميلات قصر للعذارى ، تتيه في القصر الذي تلفه آيات الجمال ، وخالت نفسها وكأن هناك من كانوا ينادونها بربة الجمال " سندس بان " وأن عابد من عبادها المنتظرين لخروجها من قصرها المنيف قد تسلل إلى محرابها وسجد بين قدميها متعبدا في جمالها مكتشفا مكنون خلاياها سابحا ساكنا في دمها ،

ازدادت الرائحة فنظرته يأمرها فابتسم :

- اتركيهما وشأنهما ..... بهما سيرث البشر أرض المملكة .... ها قد حان وقت الرحيل ، اقتربي الآن مني اقتربي آن لك أن تنفجري . ... انفجري الآن : ستخرج منك سباع الأرض وديدانها ومن كل دابة على الأرض المملكة زوجين اثنين ومن قلبك ستولد العصافير .... انفجري الآن لأسكن صلب السبع الأول وتسكنين صلب العصفور الأول .... ستدور دورتنا وسنلتقي .... سنلتقي .... سنلتقي .

(ح)

رجــع الصــدى

.... كانا ملتصقين لا حدود تفصلهما ....

من نقطة بعيدة سمعا انفجارا هز عليهما الأرض من تحتهما فانفصل جسداهما وأفاق كل منهما يتأمل جسد الآخر في اندهاش غريب ،شعرا بالظمأ فصوبا نظريهما صوب النهر المتدفق من مكان الانفجار فحثا الخطى إليه ، وعبا منه حتى الارتواء ؛ نظر كل منهما إلى الآخر فواتتهما الرغبة في التداخل ثانية ، فانفجرا ضاحكين ..... يتباعد كل منهما عن الآخر مقدار خطوات متأملا جسد الآخر للحظات غارقا في الضحك .... حتى البكاء .

--

أحمد الخالد